

مظاهر ثقافة أبي حيان الأندلسي
في ضوء كتابه التذييل والتكميل

د. وليد محمد السراقي^(١٠)

مقدمة:

أبو حيان، أشير الدين محمد بن يوسف بن علي بن حَيَّان الغرناطي الجبَّاني، ولد سنة أربع وخمسين وستمئة للهجرة، وتلقَّى في مسقط رأسه العلم على يد جَلَّة من علماء زمانه. ثم ترك بلاده وضرب في الآفاق بلاد المغرب والشمال الإفريقي، والتقى - ثمة - كثيراً من العلماء وأخذ عنهم في شتى العلوم، ثم توجه إلى مصر وألقى فيها عصا الترحال، وأخذ عن أكابر علمائها وتوفى فيها سنة خمس وأربعين وسبعمئة للهجرة بعد أن كفَّ بصره.

وهذه الحياة المديدة التي عاشها أبو حيان، وهذه الكثرة الكاثرة من العلماء الذين أخذ عنهم، تدلّان أشدّ الدلالة على عمق ثقافة أبي حيان، ورسوخ قدمه، وتمثله مختلف الجوانب المعرفية التي كانت تشكل المشهد الثقافي آنذاك.

وقد تمثل ذلك في الآثار التي خلفها أبو حيان في التفسير والنحو، ككتابه (البحر المحيط)، وموسوعته النحوية الضخمة (التذيل والتكميل في شرح كتاب التسهيل). وهذا الأخير هو الذي سيكون موضوع وقفنا في هذه الصفحات بغية استجلاء مظاهر ثقافة أبي حيان المتنوعة، ومنها:

أ. الثقافة القرآنية:

وهذه الثقافة بارزة لأدنى نظر، فالكتاب يتسم بغزارة بيئة بآيات القرآن الكريم، وهي ذات دلالة واضحة على رسوخ قدم أبي حيان في هذا الجانب، كيف لا وهو الذي سبق له أن وضع تفسيراً للقرآن ضخماً؟ لقد كان القرآن الكريم شديد المثول في ذهن أبي حيان، عظيم التمكن منه، يسير الاستحضار لدى الحاجة إلى الاستشهاد والتمثيل، فإن أراد تفسير القاعدة أو شرحها برز الشاهد القرآني ببسر متناه. ومما هو شديد الاتصال بهذا الجانب من ثقافة أبي حيان هذه الإحاطة التامة

* جامعة محمد بن سعود - الرياض.

130

الأول منه فحسب ثلاثة عشر ضعفاً عما ذكره ابن مالك، ولنا أن نقول إن هذا العدد قليل بالنسبة إلى حجم الكتاب الضخم.

ومما احتج به أبو حيان من أحاديث لم تبنَ عليه قاعدة نحوية، وإنما كانت شواهد على اللغة أو استدلالاً على قاعدة، مما يسمح بالقول بضمور هذه الثقافة في الكتاب.

فمن ذلك الحديث الذي مثّل به ابن مالك وسماها لغة "يَتَعاقِبُونَ" وهي التي يسميها النحاة لغة "أكلونسي البراغيث" فقد أبطل أبو حيان ما زعمه ابن مالك وقال: "لأن الحديث رواه مطولاً مجوداً البزاز في مسنده، فقال فيه: إن لله ملائكة يتعاقبون فيكم، ملائكة بالليل...".

ج. أثر الثقافة الفقهية:

عرف عن ابن مالك أخذُه أولاً بالمذهب المالكي، ثم انتقله إلى المذهب الظاهري وتمسكه به، حتى إنه كان يقول: «مُحالٌ أن يرجعَ عن الظاهرِ مَنْ علقَ بذهنه» وعند وفادته على مصر تمذهب للمذهب الشافعي، على أن ذلك لا يعني أن أبا حيان معدود في الفقهاء أو دَوَّن اسمه في أسمائهم، أو تُرجمَ له بين تراجمهم، ولكن عُنِيَ مترجموه بالنص على مذهبه الفقهي على نحو ما رأينا. إلا أنه لا مناص من الاعتراف بأن هذه الثقافة تكون رافداً مهماً من روافد تكامل الشخصية النحوية آنذاك. وإذا كنا نعدم أمثلة كثيرة على أثر هذه الثقافة الفقهية في "التذليل" فإننا لا ننكر أن يستطيع الدارس الوقوف على بعض ملامح من ذلك، فقد عرض مرة في تفسير الآية الكريمة: ﴿فاقطعوا أيديهما﴾ [المائدة 5: 38] لرأي فقهي في المسألة⁽¹⁾.

وفي مبحث الضمير استشهد بالآية الكريمة ﴿فَإِنَّ رَجْسٌ﴾ [الأنعام 6: 145]، وعرض لرأي ابن حزم الظاهري في مسألة تحريم لحم الخنزير وشحمه باعتبار عود الضمير إلى ما تقدم ذكره. إلا أن أثر الثقافة الظاهرية إنما يظهر أكثر ما يظهر في استخدامه منهج "ظاهرية النص" في تحرير قواعده، فكثُر في الكتاب قوله: "وظاهر قول سيبويه" أو "وهذا ظاهر النص" مما يدل دلالة عميقة على تمكّن هذا المذهب من نفسه تمكناً واضحاً، لم يستطع منه فكاً على ما سبق وقرر هو نفسه وقد صرح بذلك أيضاً في "التذيل" فقال: "إذا ورد شيء من هذه المسائل وقفنا فيه مع الظاهر"⁽²⁾. ولعل المسألتين الفقهيتين اللتين عرضنا لهما تدلان دلالة واضحة على ما وقر في نفوس علمائنا من الارتباط بين علم النحو وبين الفقه، وحاجة كل من الفقيه إلى النحوي احتياجاً ظاهراً لا فكاً منه.

2. أثر الثقافة اللغوية:

عمد أبو حيان إلى تفسير كثير من الأبيات الشعرية التي استظهر بها على قواعده النحوية المقررة، أو على الرد بشاهده الشعري على قاعدة مقررة، أو تفسير كثير من الأئنية التي حفل بها

.. 117⁽¹⁾

34⁽²⁾ ب.

كتابته، وإن نصّه على مصادره اللغوية الكثيرة من جهة، والنص على المشهور من اللغات وترتيبها من حيث الفصاحة في مراتب، أو الاستدلال على الدلالة اللغوية بالاستقاق ذو دلالة جد كبيرة على علو كعبه في هذا الجانب؛ فقد دلل على أن من لغات "أب" و"أخ" التشديد في الباء، ونقل ذلك عن الأزهرى، ثم عضد ذلك بالاستقاق اللغوي الذي يشهد لتضعيف الباء، وهو قولهم: استأبنت فلاناً، بياغين، أي: اتخذته أباً⁽¹⁾.

وقد يبدأ بتفسير بعض الألفاظ مبتدئاً بالدلالات الأكثر شهرة، ثم يعرج على الأقل شهرة، فبعد أن عرض لرأي البصريين ورأي الفراء من الكوفيين في وزن "حم" قال: "الحم: أبو زوج المرأة وغيره من أقاربه، هذا هو المشهور، وقد يطلق على أقارب الزوجة"⁽²⁾.

ومن ذلك أيضاً ترتيب لغات "جم" وفق علو جودتها، فقال: "وترتيب لغات حم في الجودة. مصاحبة الحروف، فالإتمام على فعل بالواو، فالقصر، فالنقص، فالإتمام على "فعل" بالهمز، فعلى "فعل" بالهمز"⁽³⁾. وربّما عكس الأمر فبدأ بالنص على الأضعف، فقد قرّر في مناقشة "ابنم" أن الأصل "ابن" وزيدت فيه الميم، ثم ذكر فيه لغتين، الأولى بفتح النون، وهي القليلة، والثانية: إبتاع حركة النون لحركة الإعراب في الميم. ثم نصّ على أن العرب لم تعط الفرع "ابنماً" أحكام الأصل كلّها، فأعطته حكم التنثية فقط ولم تجمعها على "ابنمون" مع أنها قد جمعت "ابن" على "بنون" ولم يسمع تأنيث "ابنم" وإن كان المسموع تأنيث "ابنة"⁽⁴⁾.

3. أثر الثقافة الأدبية التاريخية:

ويتجلى أثر هذه الثقافة في جملة من المظاهر لعل أهمها ذلك الكم الهائل من الشواهد الشعرية التي يستحضرها عاضداً بها ما يقرر من قواعد أو ناقضاً لها. ويتجلى ذلك أيضاً في ومضات من تعليقاته على هذا الشاهد الشعري أو ذاك، أو في سوقه بعض الأخبار التي تدخل في صميم التأريخ الأدبي، فمن ذلك روايته قصة امرئ القيس مع التوأم اليشكري عند طلب الأول من الأخير أن يملط له أنصاف الأبيات التي سيقولها، فاستجاب التوأم لذلك، فأخذ امرؤ القيس ينشئ نصف بيت فيتمه التوأم اليشكري⁽⁵⁾.

ومن ذلك أيضاً خبر جرير والفرزدق وقد جلسا في مجلس أحد الملوك يستمعان إلى عدي بن الرقاع العاملي فلمّا تشاغل الملك عن عدي سكّت هذا الأخير، فسأل الفرزدق جريراً: ما تراه يقول عدي؟ فقال جرير:

(1) 1/49.

(2) 1/49 ب.

(3) 1/51.

(4) 1/12 أ. والخبر في العمدة: 368.

(5) 1/12 أ. والخبر في تاريخ مدينة دمشق 47/133.

ولعل من مظاهر هذا الإطلاع المتعمق نصّه في بعض المواضع على رواية البيت على هذا النحو أو ذاك إشارة منه إلى وجود رواية أخرى، على نحو ما فعل في معرض حديثه عن الإخبار بالجملة على رأي بعض النحويين، فأورد قول طرفة بن العبد⁽¹⁾:

ألا أيُّ هذا الزاجري أحضر الوغى

وقال في رواية مَنْ رفع، أي مَنْ رفع الفعل المضارع "أحضر": وليس بخاف أن للبيت رواية ثانية وهي بنصب الفعل "أحضر" على إعمال "أن" الناصبة محذوفة.

4. أثر الثقافة المنطقية:

عُرِفَ عن أبي حيان مَقَّتَهُ للفلسفة والمنطق⁽²⁾، وبعده عن الفلسفة والاعتزال، ذلك أن سوق الفلاسفة والمنطقيين كانت كاسدة في الأندلس آنذاك، فكان "إذا بيع كتاب في المنطق إنما يباع خفية، وأنه لا يتجاسر أن ينطق بلفظ المنطق إنما كانوا يسمونه "المفعِل"، حتى إن أحد أصحاب أبي حيان كتب إليه من الأندلس أن يشتري له أو يستنسخ كتاباً في المنطق، فلم يتجاسر أن ينطق بالمنطق وإنما سمّاه في كتابه إلى أبي حيان بالمفعِل.

إلا أن دارس الكتاب لا يمكنه أن يُعَرِّضَ عن المظاهر المنطقية التي تشيع في جوانب كثيرة من الكتاب، بما يشهد على تأصل هذه الثقافة في ذهن أبي حيان، ثم انعكاسها على كتابه "التذليل" دقة وتفريعا وتقسيمًا، وأقيسة وحدودًا، وتعليلًا.

ولعل أهم مظاهر هذه الثقافة عنايته بالحد. وقد سبق أن عرفنا شدة اعتناء أبي حيان بالحدود وتحليلها، حتى إن "التذييل" لتجد ما فيه من نحو منطقي في التحديد والتقسيم والتحليل، ومن عناية بالعلة وبحث في العامل⁽³⁾.

لقد كان أبو حيان شديد التعقب لابن مالك في حدوده، وكثير الاستدراك عليه فابتداءً من أول أبواب الكتاب يعترض أبو حيان على ابن مالك لابتدائه الكتاب بـ "باب شرح الكلمة والكلام" وعدم التعرّض لحذّ الكلمة، "ذلك أنّ" الحذّ للشيء عسير الوجود، فعدل عن لفظ "حذّ" إلى لفظ "شرح" وكلاهما يشترك في كشف المحدود وبيان⁽⁴⁾.

ويبدو انسجام مفهوم "الحد" عند أبي حيان مع مفهوم الحد عند المنطقيين، ذلك أن المفهوم المنطقي للحد احتل مكان الصدارة في الحدّ النحوي، وتبنى النحاة عناصره من جنس وفصل ونوع وخاصّة، وتركز مفهوم الحدّ على أنه معرفة الماهيّة. فالحدّ هو القول الدالّ على ماهيّة الشيء،

(1) البيت لطرفة في ديوانه: 31.

(2) أنبأ حيوان النحوي: 78، والبحر 5: 150.

(3) النصح العربي: 141.

(4) التذليل: 3/1.

